

القِصَصُ الدِّينِيّ
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

نَهْايَة
مُوسَى بْنِ نُصَيْبٍ

عبد الحميد جودة السحار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ،
وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ،
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝﴾

(قرآن کریم)

بعث موسى بن نصير أبناء الملك غيطشة ، الذين
اغتصب لذريق مملكتهم ، إلى أمير المؤمنين الوليد
ابن عبد الملك بدمشق ، وكتب إليه بما عرفه به
طارق من جميل أثرهم . فلما وصلوا إلى الوليد
أكرمهم ، وأنفذ لهم عهد طارق في ضياع والديهم ،
وعقد لكل واحد منهم سجلاً ، وجعل لهم ألا يقوموا
لداخل عليهم ، فقدموا الأندلس ، واستولوا على
ضياع أبيهم ، وتقاسموها ، فصار منها لكبيرهم
« الموند » ألف ضيعة في غرب الأندلس ، فسكن
من أجلها إشبيلية ، ليكون قريباً منها ، وصار
« لأرطباش » ألف ضيعة ، وكانت في موسطة

الأندلس ، سكن من أجلها قرطبة . وصار لثالثهم
« وقلة » ألف ضيعة في شرق الأندلس ، فسكن من
أجلها مدينة طليطلة .

وبلغ الوليد توغل موسى في بلاد الأندلس فأشفق
على المسلمين ، ورأى أن يكتفوا بما بلغوه ، حتى
لا يصير إمدادهم بالرجال والعتاد متعذرا ، فبعث
مغيثا الرومي مولاة إلى موسى بن نصير .

كانت نفس موسى تتوق إلى دخول جليقية ، إذ لم
يكن في الأندلس بلد لم يدخله العرب إلى وقته ذلك
غيرها ، فبينما هو يتأهب لذلك ، إذ أتاه مغيث
الرومي ، رسول الوليد ، يأمره بالخروج عن
الأندلس ، والإضراب عن الوغول فيها ، والرجوع
إلى أمير المؤمنين ؛ فسأه ذلك ، فقد كان شديدا

الحرص على اقتحام جليقية .

راح موسى يلاطف مُغيثا ، ويسأله إنظاره إلى أن
يُنْفِذَ عزمه في الدُّخول إليها ، والمسير معه في البلادِ
أيّاما ، ويكونَ شريكه في الأجرِ والغنِمة ؛ فقبلَ
مُغيث ، ومشى معه يفتحانِ الحصون ، وكان العربُ
والبربرُ كلّما مرَّ قومٌ منهم بموضعٍ استحسنوه ،
حطّوا به ، ونزلوه قاطنين ، فاتسع نطاقُ الإسلامِ
بأرضِ الأندلس .

٢

استبطأ أميرُ المؤمنين الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ موسى
في الرُّجوعِ إليه ، فأرسلَ أبا نصرٍ رسولاَ إليه بعدَ
مُغيث ، وكتبَ إلى موسى يُؤنِّبه ، ويأمره بالخروج ،
وألزمَ رسوله إزعاجه ، وجاءَ أبو نصرٍ إلى موسى ،

وطلب منه الرجوع ، فتضايق موسى ، لأنه مُتلهَفٌ
على الجهاد ، وإنه ليأمل أن يَحترقَ أوروْبَا ، ويقتحمَ
فرنسا وإيطاليا وآسيا الصُغرى حتى يصلَ بالناس إلى
الشام مؤملاً أن يتخذَ مُحترقه بتلك الأرض طريقاً
مبيناً يسلكه أهلُ الأندلس في مسيرهم ومجيئهم ، من
المشرق إليه ، على البر ، لا يركبون بحراً ؛ ولكن
وصولَ رسول الخليفة قَوْضَ أحلامه ، وجعله يترك
جهاده ، ليتأهب للقفل .

خرج موسى من جليقية ، ووافاه طارق في
الطريق ، فأرجعه مع نفسه ، ومضيا جميعاً ، ومعهما
من الناس من اختار العودَةَ ، وأقام من آثر السُكنى
في مواضعهم التي كانوا اختصوها واستوطنوها ،
وعاد معهم الرُّسولان ، مُغيثٌ وأبو نصر ، حتى

نزلوا ياشبيلية ، فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز
على إمارة الأندلس ، وركب موسى البحر إلى
المشرق ، سنة خمس وتسعين هجرية ، وطارق معه ؛
وحمل موسى الغنائم والسبي ، وهو ثلاثون ألف رأس ،
ومن الجواهر ونفيس الأمتعة ما لا يُقدر قدره .

وبلغ موسى المغرب ، وسأل مُغيثا أن يُسلم إليه
صاحب قرطبة ، الذي كان في إسنه ، فرفض وقال :
- لا يؤذيه للخليفة سوى .

فهجم عليه موسى ، وانتزعه منه ، فقبل له :
- إن سرت به حيا معك ادعاه مُغيث ، وصاحب
قرطبة لا يُنكر قوله ، ولكن اضرب عنقه ، ففعل ،
فأضمرها مُغيث ، وحقّد على موسى ، واستخلف
موسى على طنجة وما يليها من المغرب ، ابنه الآخر

عبد الملك ، فصار جميع الأندلس والمغرب بيد أولاده .

وسار موسى فوراً الشام ، والوليد في مرض الموت ، فلما سمع سليمان ولي العهد بقرب موسى ابن نصير من دمشق ، كتب إليه يأمره بالانتظار والتمهل ، رجاء أن يموت الوليد قبل قدوم موسى ، فيقدم موسى على سليمان في أول خلافته ، بتلك الغنائم الكثيرة ، التي ما رآى ولا سمع مثلاًها ، فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس ، فأبى موسى من ذلك ، ومنعه دينه منه وأسرع في السير ، حتى قدم والوليد حي ، فسلم له الأحاس والمغانم ، والتحف والذخائر ، ومن سوء حظ موسى ، أن مات الوليد .

صار سليمان خليفة ، فحقّد على موسى وأهانه
وأمر بإقامته في الشمس ، وكان رجلاً بادناً ، فوقف
حتى سقط مغشياً عليه .

وقال له سليمان : « كبت إليك فلم تنظر
كتابي ، هلمّ مئة ألف دينار » .

فقال موسى : « يا أمير المؤمنين ، قد أخذتم ما
كان معي من الأموال ، فمن أين لي مئة ألف ؟ » .
فقال سليمان : « لا بدّ من مئتي ألف » .

فقال موسى : « من أين لي ذلك » .

فقال سليمان : « لا بدّ من ثلاث مئة ألف دينار » .
وأمر بتعذيبه ، وأمر بقتله .

وَأَلْقَى مُوسَى بِنَفْسِهِ عَلَى يَزِيدِ بْنِ الْمُهَلَّبِ ، لِمَكَانِهِ
مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَكَلِّمَهُ فِي أَنْ
يُخَفِّفَ عَنْهُ ، فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ :

- أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ ، فَأَصْغِ إِلَيَّ :

قَالَ مُوسَى : « سَلْ عَمَّا بَدَأَ لَكَ » .

فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ :

- لَمْ أَزَلْ أَسْمَعُ عَنْكَ ، أَنْتَ مِنْ أَعْقَلِ النَّاسِ ،
وَأَعْرِفُهُمْ بِمَكَائِدِ الْحُرُوبِ ، وَمَدَارِقِ الدُّنْيَا ، فَقُلْ لِي :
كَيْفَ حَصَلَتْ فِي يَدِ هَذَا الرَّجُلِ ، بَعْدَ مَا مَلَكَتِ
الْأَنْدَلُسُ ، وَأَلْقَيْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ، وَالْبَحْرِ
الزَّخَّارِ ، وَتَيَقَنْتَ بُعْدَ الْمَرَامِ ، وَاسْتِصْعَابَهُ ،
وَاسْتَخْلَصْتَ بِلَادًا أَنْتَ اخْتَرَعْتَهَا ، وَاسْتَمْلَكْتَ
رِجَالًا لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ خَيْرِكَ وَشَرِّكَ ، وَحَصَلَ فِي

يدك من الذخائر والأموال ، والمعاقل والرجال ،
مالو أظهرت به الامتناع ، ما ألقيت عُقُك في يد
من لا يرحمك ؟ ثم إنك علمت أن سليمان وليُّ
عهد ، وأنه المولى بعد أخيه ، وقد أشرف على
الهلاك لا محالة ، وبعد ذلك خالفته ، وألقيت بيدك
إلى التهلكة ، وأحققت سليمان وطارقا ، وما رضا
أمير المؤمنين سليمان عنك إلا بعيد ، ولكن لا آلو
جهدا .

فقال موسى : « يا بن الكرام ، ليس هذا وقت تعديد ،
أما سمعت : إذا جاء الحين ، غطى على العين ؟ »
فقال يزيد : « ما قصدت بما قلت لك تعديدا
ولا تبكيئا ، وإنما قصدت تلقيح العقل ، وتنبيه
الرأى ، وأن أرى ما عندك . »

فقال موسى : « أما رأيتَ الهُدُودَ يرى الماءَ تحت الأرض عن بُعد ، ويقعُ في الفخ وهو بمراى عينه ؟ » .

٤

ودخلَ يزيدُ على سليمانَ بن عبد الملك ، وراح يشفعُ لموسى ، فقال سليمان :

- إنه قد اغترَّ بما تمكَّن له من الظُّهور ، وانقيادِ الحمهور ، والتحكُّم في الأموال والأنفس ، على ما لا يحويه إلا السِّيف ، ولكي قد وهبتُ لك دمه ، وأنا بعد ذلك غيرُ رافعٍ عنه العذاب ، حتى يرُدَّ ما اختلسَ من مال الله .

وبعثَ سليمانُ بعضَ رجاله إلى الأندلس ، ليدُسَّ لعبد العزيز بن موسى ، أمير الأندلس ، الذي كان من خيرِ الوُلاة ، فراحوا يقولون للجند : إنَّ

عبد العزيز قد تزوج زوجة لذريق ، وإنها قالت له :
لِمَ لا يسجد لك أهل مملكتي ، كما كان يسجد
للذريق أهل مملكته ؟

فقال لها : « إن هذا حرام في ديننا » .
فلم تقتنع منه بذلك وفهم لكثرة شغفه بها ، أن
عدم ذلك مما يُزرى بقدره عندها . فاتخذ باباً صغيراً
قبالة مجلسه ، يدخل عليه الناس منه فينحنون ،
وأفهمها أن ذلك الفعل منهم تحية له ، فرضيت
بذلك .

وظلّ رجال سليمان ينفثون سمومهم بين الجند
حتى ثاروا وقتلوا عبد العزيز : وخرجوا برأسه إلى
سليمان ، وإنه لما أحضر إلى سليمان ، دخل عليه
موسى بن نصير ، فقال له سليمان :

- أتعرف هذا ؟

فنظر موسى إلى رأس أخيه ، وقال :

- نعم أعرفه ، صَوَّامًا قَوَّامًا ، فعليه لعنة الله إن

كان الذي قتلَهُ خَيْرًا منه .

٥

كان سليمان يطلبُ من موسى أن يؤدِّيَ لبيتِ

مالِ المسلمين مائةَ ألف ، فراح يطوفُ أحياءَ

العرب ، وليسَ معه إلا مولَى وفِيَّ له ، يسألانِ الناسَ

أن يعاونوا موسى في جمعِ ما يطلبُهُ منه سليمان ،

فواحدٌ يجيبُهُما ، وآخرٌ يحتجبُ عنهما ، ولربُّما دفعَ

إليهما على وجهِ الرِّحمة ، الدَّرْهَمَ والدَّرْهَمَيْنِ ،

فيفرحُ بذلك الأمير ، الذي كانتِ الأندلسُ كلُّها

ملكَ يمينه ، ليدفعَهُ إلى الموكِّلين به ، فيخففوا عنه من

العذاب .

كانت جنود موسى أيام الفتوح العظيمة في
الأندلس ، تأخذ الأسلاب من قصور الملوك ،
فتفصل منها ما يكون فيها من الذهب ، وترمي
ما عداه ، ولا تأخذ إلا الدرّ الفاخر ؛ فأصبح موسى
الأمير العظيم ، الذي كانت كلمة منه تفرح ملوكا
وأصحاب تيجان ، تنفرج أساريه لدرهم
أو درهمين !

وانطلق موسى ومولاه يدوران على أحياء
العرب ، حتى نفذ صبر مولاه . فعزم على أن يتركه ،
وهو بوادي القرى في أسوأ حال ، وشعر بذلك
موسى ، فقال لمولاه :

- أتتركني في هذه الحال ؟

كان المولى في ضجر شديد ، فقال له :

— قد أسلمك خالقك ومالكك ، الذي هو أرحم
الراحمين .

قدمعت عينا موسى ، وجعل يرفعهما إلى السماء
خاضعا ، وهو يتهل إلى الله ، أن يريجه من العذاب
الذي يُقاسيه ، فما انقضت تلك الليلة إلا عن قبض
روحه .

ومات الشيخ الذي جاهد في سبيل الله ، ودوخ
ملوك القوط ، ودك عروشهم ، وملا ذكره المشرق
والمغرب ، وهو من أفقر الناس وأذلهم ، ولكن اسمه
ظل خافقا ، وما ادخره في السماء ، كان أعظم من
كل كنوز الأرض ، وعروش الملوك ، والسلطان
العريض الذي يتقلص ظله بموت صاحبه .